ويعتمدون في الرثاء عليها – نراه يعود ويجعل ذلك مقصوراً على من يتصلن بالشاعر من غير نساء الملوك وبنات الأشراف ؛ وغير ذوات محارمه ، وإلا فإن عليه أن يتّجه إلى الإطار الدلالي كما رسمه قدامة ومن حذا حَذْوَه، من نحو قول أبي الطيب :

لَوْ أنَّ النِّساءَ كَمَنْ فَقَدْنا لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلى الرِّجالِ [1]

ويكاد يكون (النسيب) – من بين الإطارات الدلالية المختلفة – ذا طبيعة مزدَوِجَة ، تجعل منه إطاراً مميزاً ؛ ذلك أن الشاعر الجاهلي قد جعل منه مدخلا إلى ذكر المديح فكان يسير في رحلته إلى ممدوحه ويرى في أثناء ذلك رسوم منازل الأحباب التي نزحوا منها ، فتثير مشاعره ، وتتحرك بقايا الذكريات عنده ، فيقف على الدِّمَن باكياً ، ويستعيد – من خلال هذا الوقوف – ذكرياته الماضية ، ثم ينتهي من كل ذلك إلى غرضه الأصلي في القصيدة .

وبجانب ذلك أخذ النسيب صورة فنية مختلفة يتناول فيها الشاعر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرُّف أحوال الهوى به معهن . [2]

ويبدو أن هناك اتفاقًا بين القدماء على حركة المعنى في النسيب ، فالذي يتم به الغرضُ منه « هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصَّبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوَجْد واللَّوْعة ، وما كان فيه من التصابي والرِّقَّة ، أكثر مما يكون فيه من الإباء والعِزّ ، وأن يكون جماع الأمر ما ضاد التحفُّظ والعزيمة ، و وافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٢) قدامة : نقد الشعر ، ص ١٢٣ .